الخطاب الصّوفي الشّعبيّ –مقاربة تداوليّة –

The Sufi folklore popular discourse

–Pragmatic approach–

أ. مريم طهراوي♥

تاريخ الاستلام: 27-11-2021 تاريخ القبــول: 09-03-2022

ملخّص: الخطاب الصّوفي الشّعبي خطاب ذو نزعة منفردة وذو حمولة اعتقاديّة يتوسّل من لغته الشّعبيّة أن تُحقق له هدفه في إقامة علاقة تواصليّة ناجحة ودائمة مع متلقيه، سواء كان المتلقّي داخليا يتم توجيه الخطاب له من خلال بناء القصائد (داخل النّص)، أم كان متلقّيًا خارجيًّا يتلقّى خطابه مشافهة مرتبط بإلقاء الشّاعر أو مؤديها في الفضاءات التي تجمع متلقي هذا النّوع من الخطاب –وهي كما في الحضرات الصّوفيّة –ويكون التّفاعل الحاصل بينهما لأغراض ومقاصد متعارف عليها بينهم، ويسعى الشّاعر (المُرسِل) إلى تحقيقها من خلال توظيف المقدس الغيبي الذي يحيط بالخطاب الصّوفي عامّةً. في هذه الورقة البحثيّة سنقارب هذا الخطاب مقاربة تداوليّة من خلال بحث سمات هذا الخطاب وإمكانيّة بحثه تداوليًّا، وكذا كنموذج دراسة الأفعال الكلاميّة فيه من خلال الفعل الكلامي "الدّعاء".

كلمات مفتاحيّة: الخطاب؛ التّصوف؛ التّداوليّة؛ التّواصل.

♥جامعة الجزائر02، الجزائر، البريد الإلكتروني:meriem@hotmail.com
meriem.tahrapui@univ-alger2.dz (المؤلّف المرسل).

Abstract: The Sufi folklore "popular" discourse is characterized by a sense of individualism and a charge of belief; all that in the hope that its common language might achieve its goal in establishing a successful and lasting communicative relationship with its recipient, whether the latter is internally directed to the poet through the construction of poems (text-level), or an external recipient receiving the poet's speech (oral-level), as in the poet's live performance what we called "al hadhra"–which is the tendency in Sufist literature. The interaction that takes place between them is for objectives that are common to them, and that the poet (the sender) seeks to achieve by employing "ālmqds ālġyby" ("Holy Invisible/Unseen) (Allah) that surrounds the Sufi discourse. In this research paper, we will approach this discourse from a pragmatic approach by examining the features of this discourse and the possibility of its pragmatic research, and a model for studying speech acts in it through the speech act "āldʿāʾ/the Prayer".

Keywords: discourse; Sufism; pragmatics; communication.

مقدّمة: الولوج إلى عالم الخطاب الصّوفي الشّعبي، والتّعرف على آلياته وأدواته والشّاعر الصّوفي الشّعبي، ينسج لنا بلغة عاميّة وفكر شعبي قصائد صوفيّة، ينقل فيها وبصدق أبعاد تجربته الصّوفيّة ومواجيده وروحانياته، وهو من خلالها، يريد أن يكون مُرسِلًا لخطاب صوفي إلى متلقيه.

وهكذا كان خطابه بقصائده الشّعبيّة ذا نزعة منفردة وذا حمولة اعتقاديّة يتوسل من لغته الشّعبيّة أن تُحقق له هدفه في إقامة علاقة تواصليّة ناجحة ودائمة مع متلقيه، سواء أكان المتلقّي داخليًّا يتم توجيه الخطاب له من خلال بناء القصائد (داخل النّص)، أم كان متلقيًّا خارجيًّا يتلقى خطابه مشافهة مرتبطًا بإلقاء الشّاعر أو مؤديها في الفضاءات التي تجمع متلقّي هذا النّوع من الخطاب –وهي كما في الحضرات الصّوفيّة– ويكون التّفاعل الحاصل بينهما لأغراض ومقاصد متعارف عليها، ويسعى الشّاعر (المُرسِل) إلى تحقيقها من خلال توظيف المقدس الغيبي الذي يحيط بالخطاب الصّوفي عامّةً.

2. تداوليّة الخطاب: وها هي التّداوليّة التي تجاوزت التّعامل البنيوي مع النّص الأدبي، باعتباره نظامًا معزولًا عن كل ما يحيط به، فتعاملت معه باعتباره خطابًا مرتبطًا بسياقه وتشترك فيه الكثير من العناصر هي: المخاطَب المخاطِب، زمن التّلفظ، ومكانه وخصائص الملفوظ (الصّوتيّة والنّحويّة والدّلاليّة)، كذلك المعارف التي يمتلكها المتخاطبون، وقدرتها وعلاقتهما الاجتماعيّة والأغراض والمقاصد ونوايا المخاطِب التّواصليّة.

ولأنّها –التّداوليّة –نقطة التّقاء مع الكثير من المجالات المعرفيّة: لسانيّة فلسفيّة اجتماعيّة أنثروبولوجيّة، ومنطقيّة... وغيرها، وكلّها تسعى للغوص في الخطاب والبحث عن سرِّ استمراريته، ونفوذه بالتّأثير والإقناع في نفوس متلقيه من خلال اللّغة، لهذا هي تقوم على مقاربة الخطاب لدراسة علاقة اللّغة بمستعمليها، وتتطرّق إلى اللّغة كظاهرة خطابيّة وتواصليّة واجتماعيّة معًا.[1]

والنّظريات اللسانيّة الوظيفيّة تشمل تلك النّظريات اللسانيّة التي تعتمد كأحد مبادئها المنهجيّة على اعتبار أنّ اللّغة الطّبيعيّة بنيات تحدّد خصائصها ظروف استعمالها من خلال الوظيفة الأساسيّة لها وهي الوظيفة التّواصليّة، وتدرج تحت اسم اللسانيات التّداوليّة. هكذا مرت اللّغة في دراستها من البنيويّة إلى التّداوليّة تطوّرًا في ظل المناهج المختلفة؛ حيث انتقلت من علم اللّغة الذي يكاد يُخْلِص للنّظام اللغوي (من سوسيرإلى تشومسكي) إلى علم اللّغة التّواصلي الوظيفي. ونتج هذا التّحول عن عدة عوامل أهمّها:[2]

–تعدّد الحاجات والمصالح الاجتماعيّة، ممّا دعا إلى ضرورة تحديد دور علم اللّغة في المجتمع؛

–ظهور مشكلات جديدة في الممارسة اللغويّة، تحتاج إلى معالجة جديدة تتجاوز الإخلاص للنظام اللغوي، مثل: تعليم واكتساب اللّغة التّرجمة، العلاج باللّغة، تأثير اللّغة في الاتصال اليومي...

يتلخّص عمل التّداوليّة في دراسة المعنى من خلال الموقف الكلامي حال استخدامه وتلقيه، كما تبحث في العلاقة التّواصليّة بين مستخدم اللّغة، والفعل التّواصلي الذي يريد به التّأثير في المتلقي، وتهتم كذلك بالبحث عن معرفة مقاصد المتكلّم والطّرق التي يسلكها لنجاح الأفعال الكلاميّة، وتجمع الأبحاث والدّراسات أنّ البحث التّداولي يقوم على عدة عناصر كالأفعال الكلاميّة والاستلزام الحواري، والافتراض المسبق والإشاريات...

3. الخطاب الصّوفي الشّعبي: الشّعر الصّوفي الشّعبي والمدائح الصّوفيّة الشّعبيّة شكل من أشكال الخطابات الإنسانيّة، ينشدها المدّاحون في الحضرات الشّعبيّة وحلقات الإنشاد الصّوفي؛ إذًا هي صورة من صور الخطاب الشّعبي الذي يسعى منتج الخطاب لتأسيس علاقة مع المتلقي من جهة، والمحافظة على هذه العلاقة من جهة أخرى. وهذا باستغلال الثّراء الذي تقدّمه الاختيارات اللغويّة التي يقوم بها.

من خلال القصائد الشّعبيّة يسعى لرسم الشّخصيّة الصّوفيّة من خلال الموضوعات والقضايا الصّوفيّة التي يطرحها في خطابه، بثوبها الشّعبي وبلسانها العامي، والصّوت الذي ينقل الرّسالة للجماهير المتلقيّة، يخاطب ويترجم فكره، وبها يحاكي تجربته الصّوفيّة ويتواصل ليُحدِث التّأثير على آراء المخاطَب وسلوكه واستمالة نفسه وتوجيه عقله. ويظهر جليًّا قدرة الشّاعر منتج الخطاب للتواصل مع المخاطبين مهما اختلفت السّياقات والمواقف المختلفة ومن خلال القراءات المتكرّرة لهذا الخطاب والاحتكاك به.

إنّ طبيعة الخطاب المدروس ذو طبيعة شعريّة، والشّعر هو خطاب إنساني وجداني يعتمد على العاطفة والتّخييل في موضوعه ومعالجته للقضايا التي يتناولها وعلى الوزن والقافيّة والإيقاع في بناء شكله.

فهو يدخل في دائرة الشّعر الشّعبي الذي يحمل كل السّمات الشّعريّة ولكنّه يميل إلى التّحرّر من صرامة اللّغة باستخدامه للعاميّة، وأيضًا في تحرّره من

الأنا المنتجة وتملكها ليذوب في الأنا الاجتماعيّة، وإن أجمع الدّارسون على الاختلاف في تعريفه من حيث الزّاويّة التي يرون أنّها هي الأحق في إثبات شعريته وأدبيته؛ فهناك من يربط هذا الشّعر بمصطلح الشّعبيّة؛ لأنّ هذا اللفظ يوحي «بأنّه مجهول المؤلّف...وتنصرف إلى ما له عراقة وقدم، وإلى ما يعبّر عن روح جماعيّة، بحيث يصبح هذا الشّعر تعبيرًا عن وجدان الشّعب عامّة وقضاياه، دون الاهتمام بالقائل إذْ ينصبّ اهتمام المتلقي على النّص وحده»[3].

وهناك من يولي اهتمامًا للجانب اللغوي، واستعماله العاميّة سواء كان المؤلّف معروفًا أومجهولًا[4]، فإن اختلف الدّارسون في التّسميّة فقد اتفقوا في الخصائص المميّزة له وهي الواقعيّة[5] والجماعيّة[6].

هكذا يكون الشّعر الشّعبي خطابًا لا ينحصر في ذاتٍ مبدعةٍ بل يتجاوز إلى حد التّآلف والمشاركة بينه وبين متلقيه. ليعكس فيه الذّات الجماعيّة، ويكشف من خلاله التّجارب والمعاناة، وينقل الثّقافة والمعتقد، ويعبر عن القيم والسّلوكيات، وفيه يكون التّفاعل والتّواصل الذي هو من صميم الدّراسة التّداوليّة، التي هي في أوجز وأشهر تعريف لها هي «دراسة اللّغة في الاستعمال الفعلي لها»، والشّاعر الشّعبي يمارس في شعره وبلغته العاميّة بتواصله مع محيطه ومع الآخر ومع ذاته وفكره.

وهو–أي الخطاب الشّعري الشّعبي–خطاب يعبر عن رؤيّة مبدعه وتوجيهاته التي تمنح النّص فرادته وتميّزه في الموضوعات التي يختارها ليعبر عنها في سياق ثري تتناسل فيه الدّلالات التي تتضافر لغاية واحدة هي إقناع المتلقي بوجهة نظر معينة تهدف إلى التّأثير فيه، واستمالتّه لقبول وجهة نظره. وهذا ما يجمعه الشّاعر الشّعبي عندما يطرق موضوع التّصوف، ويرسم الممارسة الصّوفيّة الشّعبيّة بكل أبعادها والتي تتمثّل في: الطّرق الصّوفيّة والزّاويّة كفضاء مكاني يشتغل عليه التّصوف.

الشّاعر الشّعبي عندما يمارس صوفيته يتخذ من خطابه، ولغته المستخدمة والسّياق والمقامات المختلفة للدعوة إلى الله والتّمسك بالطّريق المستقيم. وهو في كل هذا يحاول أن يقنع المتلقي باستغلال الكثير من الآليات الخطابيّة التي يسوقها مُعبّرًا عن رأيه عارضًا فكره؛ وبهذا «يتحقّق التّواصل معه بقصديّة مسبقة، وتتجلّى مقولة القصديّة بالخصوص في الرّبط بين التّراكيب اللغويّة ومراعاة غرض المتكلّم والمقصد العام من الخطاب»[7].

إنّ البحث في السّمات والتّقنيات الخطابيّة التي تجعل منه خطابًا قابلًا للمقاربة التّداوليّة؛ وقراءة المدونة قراءةً موضوعيّة نجد أنّ الشّاعر ينسج في قصائده ما يجعله ينتمي للخطاب الصّوفي، ويحمل كل الأبعاد الموضوعيّة الصّوفيّة وبرؤيّة شعبيّة. من خلال تناول المريديات، ومدح الشّيوخ، ومدح الذّات المحمّديّة، والذّات الإلهيّة، يدافع عن التّصوف ويرسم له الصّورة للمنهج المثالي وهو السّبيل الموصل لمحبة الله وبلوغ مرتبة الإحسان التي ذكرها الرّسول سيدنا محمّد–صلّى الله عليه وآله وسلّم–في حديثه عندما قال سيدنا جبريل –عليه السّلام–:(فأخبرني عن الإحسان) فقال–صلّى الله عليه وسلّم: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك»[8]. وعلى هذا رتب الصّوفيّة الدّين في ثلاث مراتب: الشّريعة والطّريقة والحقيقة؛ فـ «الشّريعة أن تعبده، والطّريقة أن تقصده، والحقيقة أن تشهده. أو قل الشّريعة لإصلاح الظّواهر والطّريقة لإصلاح الضّمائر، والحقيقة لإصلاح السّرائر[9]».

3. السّمات الخطابيّة للشعر الشّعبي الصّوفي: على هذه المفاهيم بنى الشّاعر الشّعبي خطابه الصّوفي، وكانت قصائده المساحةَ الرّحبةَ ليتواصل مع متلقيه في إطار غاية التّصوف وهدفه. والمتلقي يتنوّع، فقد يكون متلقيًّا يوافق منهجه ويريد الاستزادة من خطابه وتواصله معه، أو يكون متلقيًّا يعارض منهجه ويحاول من جهته أن يتبنى الطّرق ليدافع عن فكره الصّوفي تارة ويحشد الحجج ليقنعه تارة أخرى. ويكون الخطاب «–كما يراه التّداوليون المعاصرون–

متميزًا بخصائص بنائيّة تواصليّة تجعله مختلفًا عن غيره من الخطابات السّرديّة والحكائيّة والإخباريّة»[10].

وعلى هذا يكون قصده مُعْلَنًا وأفكاره مترابطة، ولا يكتفي بحرصه على إقناع متلقيه بوجهة نظره أو طريقته في تناول الأشياء. وبل يصل إلى حمله على الإذعان دون اقتناع حقيقي. فهو نص يلزم صاحبه على نحو صارم بما جاء فيه، بل يورطه بشكل واضح جلي[11]، ومن السّمات الخطابيّة التي تجعل من الشّعر الصّوفي الشّعبي قابلًا للدراسة التّداوليّة:

1. القصد المُعلَن: الخطاب الصّوفي الشّعبي، يسعى إلى إحداث تغيير في المتلقي من خلال إقناعه بفكرة التّصوف، فكثيرًا ما يحمل خطابه دعوة صريحة للمتلقي للتصوف من خلال اتباعه لشيخ والالتّزام بمنهجه، وطريقته الصّوفيّة. وهذه الدّعوة تكون مباشرة أو غير مباشرة لمستمعه.

2. التّناغم والانسجام: إنّ الانسجام والتّناغم الموجود في النّص الصّوفي الشّعبي، ومن خلال تلقي هذه القصائد يظهر التّسلسل الدّقيق بين أجزاء القصيدة بين الاستهلال واللازمة وصلب القصيدة وأبيات الختام فيها. فلا نلحظ تنافرًا أو تناقضًا بين المقدّمات للقضيّة التي يناقشها وطرحها في بداية القصيدة وبين النّتائج النّهائيّة التي يصل إليها. ويدعم ذلك وجود الصّور والتّمثيلات المناسبة التي تساعد على إقناع المتلقي وحمله على الإذعان.

3. والقصائد الشّعبيّة قصائد **إلقائيّة** ملحنة. وهذا ما يجعل للإيقاع دورًا في استمالة المستمع وآليّة يستغلها الشّاعر لمحاصرة المستمع له.

4. الاستدلال والمنطق: إنّ الدّعوة التي يقيمها الشّاعر الشّعبي في تصوّفه تحتاج إلى طرح عقلي للفكرة التي يريد من المتلقي أن يقتنع بها ويغير من سلوكه إلى التّصوف الشّعبي، فلا يهمل الجانب العقلي والبرهنة على صحّة ما يدعو له من خلال التّرتيب المنطقي لأفكاره وتسلسلها اللغوي التي تهدف جميعها إلى غاية واحدة.

5. التّوجيه: الشّعر الصّوفي الشّعبي يحرص على توجيه المتلقّي، وقيادته حتى يلتزم بطريقة ما ويتبع شيخه الذي يرى أنّه المدار الذي ينطلق منه للوصول إلى الله ومعرفته، فيحرص كل الحرص ويجند كل مقاصد الخطاب من لغته وأساليبه، وشكله وإيقاعه، حتى يقود المتلقي إلى الغاية المنشودة. ويكون التّأثير ليس في الرّأي والفكرة فحسب بل في السّلوك الحياتي له أيضًا.

6. الحياد: في الشّعر الشّعبي الصّوفي يعمد الشّاعر إلى طرح موضوعه على أنّه حقيقة قائمة ومقبولة لدى الجميع، ويعرض أفكاره على أنّها مسلّمات تجعل المستمع له يستهجن نفسه بخروجه عن هذه القاعدة العامّة؛ فيحمله على تغيير سلوكه دون إقناع حقيقي.

هذه السّمات والخصائص وتحديدها تساعدنا لفهم هذا الخطاب الشّفوي ودراسته أثناء بناء العمليّة التّواصليّة، وتوجيه المستمع بلغة طبيعيّة فيلجأ إلى التّلخيص والتّلميح والإضمار؛ لأنّه يراعي الشّفويّة التي يُلقى بها الخطاب رغم عمق القضيّة التي يدعو لها وتشبعها وحساسيتها؛ فهو في خطابه الشّفوي «يقاوم عدوَين قاتلَيْن هما: عدم الانتباه والنّسيان. فالمحتج لفكره أو رأيه أو المدافع عن العقيدة أو المذهب حين يكون في مقام شفوي يحتاج دون شك إلى لفت انتباه السّامعين والاستحواذ على أسماعهم من ناحيّة، وإلى المحافظة على هذا الانتباه أكبر قدر ممكن، فلا يمل السّامع كلامه»[12].

وفعلًا الإلقائيّة الشّفويّة لهذا الخطاب تستدعي من منتجه وملقيه اللجوء لشدِّ الانتباه مثل الاعتماد على الإيقاع واللحن، وأسره بين دقات الطّبل. أيضًا توجد في القصائد الصّوفيّة الشّعبيّة لازمة يكررها المستمع(المتلقّي) مع الشّاعر؛ فهي تضمن تواصل المتلقي معه واستمراره في متابعة خطابه، والحلقة الدّائريّة التي يلتف بها حول الشّاعر جمهور المتلقين من خلال الحضرات الصّوفيّة تسهم إسهامًا كبيرًا في نفاذ خطابه في نفوس ملتقيه.

4.الأفعال الكلاميّة في الخطاب الصّوفي الشّعبي: وفي هذا العنصر سنتناول الأفعال الكلاميّة من خلال نماذج شعريّة مختارة ودور هذه الأفعال في إقامة علاقات تواصليّة وتقويتها للوصول إلى إنجاز مقاصد الدّيوان، وهي معرفة الله ومعرفة الطّريق إلى الله. حيث يشكل الدّيوان فعلًا كلاميًّا أكبر وهو الدّعوة إلى الله والإرشاد إلى الطّريق إليه، وتحت هذا الفعل تنطوي أفعال كلاميّة جزئيّة تتضافر وتسهم في تحقيق الفعل الكلامي الأكبر.

لقد استأثر بحث الأفعال الكلاميّة اهتمام الباحثين في الدّرس التّداولي. و(أوستين) مؤسّس هذه النّظريّة يرى أنّ «وظيفة اللّغة الأساسيّة ليست إيصال المعلومات والتّعبير عن الأفكار إنّما هي مؤسّسة تتكفل بتحويل الأقوال التي تصدر ضمن معطيات سياقيّة إلى أفعال ذات صبغة اجتماعيّة»[13]. ومن هذه الرّؤيّة انطلق تصنيف المنطوقات إلى تقريريّة وأدائيّة، وأيضًا أعطى مفهومًا جديدًا هو الفعل الكلامي الذي هو كل ملفوظ يفضي التّلفظ به في شروط معينة إلى حدث أو فعل ينتج هذا الفعل آثارًا قد تكون لغويّة، وقد تكون غير لغويّة[14]وهو ثلاثة أنواع:[15]

–فعل قولي ليتحقّق ما إن نتلفّظ بشيء ما مثل قولنا "أنجز واجبك"؛

–الفعل الإنجازي: ويتحقّق بما يؤديه الفعل القولي من وظيفة في استعمال كالوعد والتّحذير، والأمر والنّصح، والنّهي، المتلفّظ بالفعل القولي السّابق "أنجز واجبك" أنجز أمرًا حين آمرُ بإنجاز الواجب حين التّلفظ به؛

–الفعل التّأثيري: وهو الأثر الذي يخلقه الفعل الإنجازي في الملتقّي، فبعد إنجاز المتكلّم فعل الأمر على المُرسَل إليه(الملتقّي) أن يستجيب للأمر ويقتنع به.

و(أوستن) أعطى كل الاهتمام للفعل الإنجازي الذي يتعلّق بالمُرسِل، أمّا الفعل التّأثيري فإنّه يتعلق بالمُرسَل إليه[16]، ويبقى نجاح المتكلّم في فعله الإنجازي من خلال الأثر الذي يتركه لدى المتلقي، وهكذا كان مدار النّظريّة هو الفعل الإنجازي للتواصل مع المتلقي، وبذلك تم تصنيف هذه الأفعال في

البداية مع (أوستن) [17]، ثم قام تلميذه (سيرل) بتعديل الغموض والنّقصان الذي كان يعتري تقسيم (أوستن)، وأعاد تقسيم الأفعال الكلاميّة مراعيًا أطراف الخطاب والأغراض الإنجازيّة للأفعال وقوتها، وأعطى للعوامل الخارجيّة والدّاخليّة دورًا في معرفة الأفعال الإنجازيّة، وقام بتصنيف الأفعال الكلاميّة إلى خمسة أقسام وطوقها بشروط[18]. وهي التي سنعتمدها في قراءتنا للفعل الكلامي الذي يعتمد عليه الخطاب الصّوفي في إنجازه وإنجاح العمليّة التّواصليّة.

من خلال قراءتنا لبعض النّماذج الشّعريّة يتبيّن لنا الفكرة التي يشتغل عليها الخطاب الصّوفي الشّعبي، ويبني هندسة خطابه حولها. فهو عبارة عن حلقات مترابطة تحمل إحداها إلى الأخرى لتشكّل في النّهاية الطّريق الصّوفي الذي كانت بدايته ترك كل زائل والتّمسك بالحقيقة وطلب الاستقامة وتكون نهايته مثبتة في الحلقة الإلهيّة، وعلى مستوى هذا الطّريق تتفاعل عدّة أفعال كلاميّة لتحقق مقاصد الخطاب وتقود المتلقّي إلى الاستقامة في الطّريق والوصول إلى نهاية الطّريق.

من خلال الاطلاع على نماذج مختارة للدراسة يمكن تقسيم الخطاب إلى أربع دوائر خطابيّة، وعلى مستوى كل دائرة فعل أو أفعال كلاميّة تريد إنجازها وتحقّقها يسهم في تحقّق الفعل الكلامي الأكبر، وهذه الدّوائر الخطابيّة التي سندرس تواصليّة الفعل الكلامي على مستواها هي:

- دائرة الدّعاء ⟵ فعل الدّعاء
- دائرة التّوسل ⟵ فعل التّوسل
- دائرة الطّريق الصّوفي ⟵ فعل السّلوك
- دائرة المريد ⟵ فعل الإرادة

وسنقدم تحليلًا نموذجيًّا نقتصر فيه على فعل الدّعاء في الخطاب الصّوفي الشّعبي:

1.4 فعل الدّعاء في ديوان السّفينة:[19] الدّعاء هو نداء يصدر من المتكلّم ليقبل عليه المنادى ويتقرب منه، وهو فعل لمد جسور التّواصل بين الدّاعي والمَدعُوِّ، وهو دعاء للغائب الذي يريد الإنسان تحقيقه ولديه الرّغبة في إجباره على الحضور[20]. الدّعاء خطاب موجهٌ ينتظر خطابًا جوابيًّا تتحمل الذّات الدّاعيّة المسؤوليّة لتوفير الشّروط الضّروريّة للحصول على الخطاب الجوابي ويكون ذلك بقدر الحاجة والإلحاح والإعادة والتّكرار. وهكذا يكون الدّعاء إلى الله فعل لفظي تلفظه ذات الإنسان موجه إلى الذّات الإلهيّة بقصد طلب تغير واقع إلى الأفضل أو للحمد والشّكر والثّناء.

كما أنّ الدّعاء له مكانة في حياة الصّوفي في شتّى مراتبه التي يتقلب بينها فهو يبحث عن الأنس بالله ومناجاته والتّحاور والتّواصل معه، وينطلق لسانه بالدّعاء فالدّعاء بالنّسبة له العطاء ونعمة وباب من أبواب القبول عند الله ولا توجد طاعة أكبر من الدّعاء فهو مخ العبادة كما قال صلّى الله عليه وسلّم.

والصّوفي يسعى، كما هو معلوم، في سلوكه للتّخلّص من كل قيد يعطله والتّرفع عن كل أمر دنيوي، ولا يتوانى في البحث عن الطّرق والسّبل الكفيلة بتحريره وإطلاق روحه. وفي هذا الإطار يُصدِر الدّعاء باعتباره تعبيرًا متجدّدًا يتطلّع للرقي والسّمو وفي المقابل، فعل الدّعاء في الخطاب الصّوفي يتلقاه متلقٍّ له نفس الغاية والحاجات والأحوال التي دفعت بمنتج الخطاب أن ينتج خطابه ويصبح يحاكي نفسه في الدّعاء وهو يعلم تمام اليقين أنّ الله قائل:﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاعِي إِذَا دَعَانِ ﴾[21]؛ وهو بذلك يقول «أجيب دعوة الدّاعي إذا خصني بالدّعاء، والتّجأ إلى التّجاءً حقيقيًّا بحيث ذهب عن نفسه إليَّ، وشعر قلبه بأنّه لا ملجأ له إلاّ إليَّ»[22].

أَسْتَغْفِرُ اللهَ مُجِيبَ المُضْطَرِ إِذَا دَعَاهْ يَسْمَعُه فِي السّرِّ وَالعَلَـــــنِ
أَسْتَغْفِرُ اللهَ سَالتّهُ يُنْقِذْنِـــــــي مِمَّا اِرْتَكَبْتُ قَمِيصَ الحُزْنِ أَلْبَسَنِـي
أَسْتَغْفِرُ اللهَ سَالتّهُ يَعْصِمُنِـــــي مِنْ المَهَالِكْ لِأَنَّ الشّيْبَ أَدْرَكَنِـــي

الغرض الإنجازي الذي يسعى إليه فعل الدّعاء هو الإخبار وتصوير ونقل واقع يريد المتكلّم أن يغيره ، وهو يتحمّل مسؤوليّة تغيير هذا الواقع من خلال صدق التّوجه في فعل الدّعاء، وهو في هذا الغرض يُصدر أحكامًا عن الواقع يرفض البقاء فيه ويسعى من خلال هذا الفعل إلى الكثير من الإيضاح والتّفسير والشّرح للمتلقي الحقيقي لهذا الفعل وهو الذّات الإلهيّة، وكذلك المتلقي الثّاني وهو المُريد الصّوفي عند سماعه هذا الدّعاء هو متلقٍّ غير مباشر له ويسعى المتكلّم عرض حالتّه التي تشبه الحالات الإنسانيّة، فلا يمكن أن يستغني أحد من البشريّة عن الدّعاء إلى الله بحجّة أنّه ارتقى إلى درجات الكمال والرّضا.

فعل الدّعاء قد يتضمّن أغراضًا إنجازيّة توجيهيّة يقوم بها الدّاعي للتأثير على المتلقي الأوّل الذي هو أعلى منه درجة، واستمالتّه ليحصل على المطلوب من خلال السّؤال:

اقبلْ سُؤالِي يا جَليلْ يا جَميلْ أَدخِلنِي يُومْ البَعثْ فِي ظِل ظِليلْ[23]

ويقول أيضًا:

سَالتّهْ لُطْفًا لِأَنـــي ضَعيفْ لِتضْحَى همُومـــي مُنْفَرِجًـــــا[24]

لا يتوانى الدّاعي في تقديم المبررات التي يعطي بها صورة عن واقعه وحاجته لتغيير هذا الواقع، وأيضًا رسم صورة للمستقبل الذي يريد أن يعيشه فيكثر من التّضرع والرّجاء والاستعطاف، مثل ما نجده في قول الشّاعر الصّوفي:

نَدِيتْ نِداءَ الْغَرِيقْ فِي اللّجُـــجِ أَغِثْنِي يَا مَنْ لَهُ عَنِّي حِجَجْ

مَالِي فِي الدّعَاءِ لِلْغَيْرِ اِحْتِيَاجْ إِلاَّ لِمَنْ مِنْهُ الغَرقُ وَالنّجَـا[25]

وفي الرّجاء يقول:[26]

إِذَا اشْتَدَتْ النّوَايِبْ بِـــي وَكَرْبِ جَعَلْتُ رَجَاءِ فِيكَ يَا مَنْ يَرَانِي

يَا نِعْمَ المُجِيرُ حَبِيبِي أنتَ حَبِيبِ فَاَكْفِنِي مَا أَهَمْنِي فِي زَمَانِـــي

فَإِنِّي كَرِيمٌ أَقْصِدُ إِنْ طُـــــرِدْتُ سِوَى أَنْتَ يَا وَلِي وَيَا أَمَانِـــي

ويواصل شاكيًا باكيًا مستعطفًا:[27]

شْكِيتْ اِلِيكْ يَاخَيْرَ مَنْ يُجِرْنِي مِنْ الْبُعْدِ عَنْ مَرَامِي بِالتّمَنِّـــــي
بَكَيْتُ بُكَاءً أَرْعَبَا وَزَادَ حُزْنِـــــي مِنْ تَعْطِيلِي فِي المَهَالِكْ بِالتّمَنِّي

وهذا يجعلنا نقرُّ أن الدّعاء وسيلة يتخذها الصّوفيّة تربيّة للمُريد، فيه يدرك واقعه ويبصر غايته، فيسعى إلى العدول عن بعض سلوكاته التي لا تساعده في الوصول إلى غايته ويتحرر من قيوده، وبفعل الدّعاء يلزم نفسه أمام الذّات الإلهيّة بأفعال وسلوكات تجعل الله إنّ التّزم بها أن يجيب دعوته. وهنا يأخذ فعل الدّعاء والغرض الإنجازي الالزّامي لنفسه بسلوكات مستقبليّة ولا يدعي المشارطة بينه وبين الله في هذا الالتّزام بل بكل طواعيّة منه ولا يسقط هذا الالتّزام بعدم إجابة الدّعاء.

الصّوفي بفعل الدّعاء يتخذه مساحة للبوح بكل ما يخالج شعوره وأحوال نفسه المتعبة من الشّوق والمحبة التي يكابدها الصّوفي.

ويبوح بما يثقل نفسه شاكيًا إلى الله فيقول:[28]

شْكيتْ إليكْ يَا مَوْلَيَـا بمـــــا هـو فبعلْمِك بَلْ مِنْهُ الصّميمُ تَخلْخَـــــلَا
فَقَدْ ضَاقَتْ الأَخلاقُ ممّا قد أَصَابني مِنْ فَقْدِ الأمْرِيْن الْكَائنين مُعَطَـــــلَا
فَابْعَثْ جُيُوشَ الْيُسْرِ لِلَّدَاعِـــــــي نَصْرَةً تُهَوَّلْ جُيُوشَ الْعُسْرِ هَوْلَا مُّهَوَّلَا.

يتخذ من فعل الدّعاء الغرض الإنجازي للتعبير عن موقفه النّفسي، وهو تعبير يشترط فيه الإخلاص في بَوْحِه اتجاه واقعه المفروض عليه أو الواقع الذي يأمل أن يحقّقه فعل الفعل الدّعاء.

المُريد الصّوفي المتلقي الخارجي لهذا الخطاب لا يملك إلاّ أن يعلن انتماءه لهذا الخطاب لما يوفّر له ما يعيشه، ويعجز أن يعبّر عنه أو يتمنّى أن يعيشه ويعيش تلك الرّاحة والسّكينة التي يطلبها. فالعودة إلى الله عودة إلى الفطرة التي وُجِد عليها الإنسان فلا يملك المتلقي إلاّ أن يرفع صوته مرددًا مع قول الشّاعر في كلّ مناسبة ويسعد بتأديتها في الحضرات الصّوفيّة.

5.خاتمة: وفي ختام هذه الورقة البحثيّة التي هي عبارة عن دعوة للنّظر للتّراث الشّعبي نظرة مغايرة، نظرة تجعل منه خطابًا يحمل في طياته رسالة إلى متلقيه، وعَبرَه نقل الصّوفي فكره ورسالتّه إلى الجماهير المتلقيّة، وقد أسهم المنهج التّداولي في كشف الكثير من السّمات والآليات التي يتوفّر عليها هذا الخطاب ليكون خطابًا تواصليًّا مؤثرًا بفعاليّة في متلقيه.

6.المصادر والمراجع:

- **القرآن الكريم.**
- الشّيخ سيدي العربي المكناسي، ديوان السّفينة مخطوط.

1. أحمد بن محمّد بن عجيبة، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، تقديم: محمّد أحمد حسب الله دار المعارف مصر القاهرة، 1985؛
2. أحمد الابيض، فلسفة الدّعاء، دار المعراج سوريا، دمشق ط1، 2012؛
3. التّلي بن الشّيخ، دور الشّعر الشّعبي الجزائري في الثّورة (1880\1945) الشّركة الوطنيّة للنشر والتّوزيع، الجزائر؛
4. جون أوستين، نظريّة أفعال الكلام العامّة، تر: عبد القادر قيني، إفريقيا الشّرق، الدّار البيضاء، المغرب، 1991؛
5. رحيمة شيتر، تداوليّة النّص الشّعري، جمهرة أشعار العرب، أطروحة دكتوراه جامعة الحاج لخضر، باتنة . 09؛
6. ساميّة الدّريدي، الحجاج في الشّعر العربي القديم، عالم الكتاب الحديث، إربد الأردن ط 2008؛
7. ساميّة الدّريدي، دراسات في الحجاج، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن ط 2009؛
8. عبد الله الرّكيبي: الشّعر الدّيني الجزائري، الشّركة الوطنيّة الجزائري للنشر والتّوزيع الجزائر؛
9. عبد الهادي بن ظافر الشّهيري، استراتجيات الخطاب، دار الكتاب الجديد المتحدة بيروت لبنان، 2004؛
10. عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النّظريّة التّداوليّة، منشورات الاختلاف الجزائر، ط1، 2003؛
11. فرانسوار أرمينكو، المقاربة التّداوليّة، تر: سعيد علوش، المركز القومي الدّار البيضاء؛

12. محمّد المرزوقي، الأدب الشّعبي في تونس الدّار التّونسيّة للنشر، (د، ط)،1967؛
13. محمّد سعيدي، الأدب الشّعبي بين النّظريّة والتّطبيق، الدّيوان الوطني للمطبوعات الجامعيّة؛
14. محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعيّة مصر، 2002؛
15. مسعود صحراوي، التّداوليّة عند العرب، دار الطّليعة للنشر والتّوزيع، بيروت لبنان ط5، 2001؛
16. ورقاء يحيى قاسم المعاضدي، الحجاج في الخطاب الشّعري المعاصر، كتاب التّداوليّة بين البحث اللغوي والأدبي.

7.الهوامش:

[1]–فرانسوار، أرمينكو، المقاربة التّداوليّة، تر: سعيد علوش، المركز القومي الدّار البيضاء ص68.

[2]–المرجع نفسه، ص 35.

[3]–عبد الله الرّكيبي: الشّعر الدّيني الجزائري، الشّركة الوطنيّة الجزائري للنشر والتّوزيع الجزائر ص 363.

[4]–ينظر: محمّد المرزوقي، الأدب الشّعبي في تونس الدّار التّونسيّة للنشر، (دط)،1967 ص51.

[5]–الواقعيّة: الشّاعر ينطلق من واقع المجتمع ليعبر عن آمال وآلام الشّعب وتصوير حياته اليوميّة. والأدب الشّعبي خُلق من أجل أن يكون واقعيا. انظر: محمّد سعيدي، الأدب الشّعبي بين النّظريّة والتّطبيق، الدّيوان الوطني للمطبوعات الجامعيّة، ص12.

[6]–الجماعيّة: الجماعة الشّعبيّة هي صانعة الأدب الشّعبي، فالمبدع الأوّل سرعان ما يذوب في الذّات الجماعيّة؛ لأنّه يعبر عن حال الجماعة التي ينتمي إليها، ويخلق الأدب الشّعبي أثرا فنيا يتوافق وذوق الجماعة. انظر: التّلي بن الشّيخ، دور الشّعر الشّعبي الجزائري في الثّورة (1880\1945) الشّركة الوطنيّة للنشر والتّوزيع، الجزائر، ص 84.

[7]–مسعود صحراوي، التّداوليّة عند العرب، دار الطّليعة للنشر والتّوزيع، بيروت لبنان، ط5 2001، ص10.

[8]–زين الدّين أبي فرج عبد الرّحمن ابن رجب الحنبلي، تح: أبي معاذ طارق بن عوافي الله بن محمّد، مج 01، دار ابن الجوزي، الرّياض المملكة السّعوديّة، ط01، 1996. ص189

[9]–أحمد بن محمّد بن عجيبة، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، تقديم: محمّد أحمد حسب الله دار المعارف مصر القاهرة، 1985، ص25.

[10]–ورقاء يحي قاسم المعاضدي، الحجاج في الخطاب الشّعري المعاصر، كتاب التّداوليّة بين البحث اللغوي والادبي، 365.

[11]–انظر: ساميّة الدّربدي، الحجاج في الشّعر العربي القديم، عالم الكتاب الحديث، أربد الأردن ط 2008 ص 25 و26.

[12]–ساميّة الدّريدي، دراسات في الحجاج، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط 2009 ص 117.

[13]–عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النّظريّة التّداوليّة، منشورات الاختلاف الجزائر، ط 1 ،2003، ص 155.

[14]–انظر: رحيمة شيتر، تداوليّة النّص الشّعري، جمهرة اشعار العرب، أطروحة دكتوراه جامعة الحاج لخضر، باتنة . 08/09 ص 149.

[15]–عبد الهادي بن ظافر الشّهيري، استراتجيات الخطاب دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت لبنان، 2004، ص 75

[16]– انظر: جون أوستين، نظريّة أفعال الكلام العامة، تر: عبد القادر قيني، إفريقيا الشّرق الدّار البيضاء، المغرب، 1991، ص174.

[17]–انظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاص، دار المعرفة الجامعيّة، مصر، 2002. ص 49

[18]–المرجع نفسه، ص49.

[19]–ديوان السّفينة للشيخ الشّاعر سيدي محمّد العربي بن الجيلاني المكناسي من الشّعراء المغاربة الذين وفدوا للجزائر، وعاش مدة طويلة بها ثم عاد لوطنه وتحديدا مدينة طنجة التي دفن بها وكل المعلومات شفويّة، وقد خلف ديوان أسماه السّفيّة وهو ديوان شعري صوفي به حوالي 74 قصيدة وكذلك مراسلات مخطوطة بينه وبين شيوخ الزّاويّة التّجانيّة بتماسين.

[20]–انظر: أحمد الابيض، فلسفة الدّعاء، دار المعراج سوريا، دمشق ط1، 2012 ص28.

[21]–سورة البقرة، الآية 186.

[22]–محمّد عبد، رشيد رضا، تفسير المنار، ج2 ص ،137 نقلا عن أحمد الابيض، فلسفة الدّعاء، ص 24.

[23] –المرجع السّابق، ص09.

[24]–الشّيخ سيدي العربي المكناسي، ديوان السّفينة، ص16.

[25]–الشّيخ سيدي العربي المكناسي، ديوان السّفينة، ص 18

[26]–المرجع نفسه، ص 14 ،15، 16.

[27]–المرجع نفسه، ص 16،15،14.

[28]–المرجع نفسه، ص 12.